المحاضرة الخامسة : الفرق بين التجمع والمجتمع2

هل يمكن الحديث عن مجتمعات إنسانية غير تاريخية؟

6 ـ التاريخ ومراحل تطور المعرفة الإنسانية :

منذ أن وجد الإنسان على سطح المعمورة حاول تحديد سبل المعرفة الكفيلة بإيصاله إلى الحقائق الصادقة التي تمكنه من فهم العالم الذي يحيط به ، فاعتمد على آليات مختلفة لمعرفة هذه الحقائق ، حيث اعتمد على التخيل و التكهن والتصور والتأمل والملاحظة والتجريب وغير من الآليات ، ونظرا لامتلاكه ملكة العقل جعلته يختلف عن باقي الكائنات الأخرى ، حيث تدرج في تطور معارفه ، ليمر في ذلك بمراحل :

6 ـ 1 ـ المرحلة الأسطورية : وهي مرحلة الحياة البدائية الأولى وما تلاها من الأزمنة السحيقة ، حيث تميزت المعرفة فيها بالخرافة والأسطورة ، فشهدت تفسير الأشياء بكيفيات خرافية أسطورية . والواضح أن الإنسان أرجع علل الأشياء إلى علل غيبية دون التوصل إلى إله الكون ، فخيل للإنسان أن لكل ظاهرة إله خاص . وإذا أراد قضاء حاجاته لا مناص له من التقرب إليها بالقرابين والنذور ، وهو ما أدى به إلى إنشاء المعابد والخلوات من أجل أخذها مكان للعبادة . حيث تزامن هذا التفسير مع إنسان الحضارات الشرقية مع الفراعنة والبابليين والأشوريين والإغريق الأوائل وغيرهم ، فظهرت آلهة زيوس وأبوللو وهرمس ....عند الإغريق ، واللاتي والعزة وهبل عند عرب الجاهلية . حيث جعلهم الإنسان آنذاك شبيهين بالبشر يأكلون كما يأكل الإنسان ويفرحون ويحزنون كما يفرح ويحزن الإنسان ... رغم أنهم خياليين لكن لهم نزوات وعواطف مثل الإنسان .[1]

لقد أشاد الإنسان في هذه المرحلة بالآلهة في آدابه وفنونه ، حيث قام بنظم الشعر تجسد في قصائد منظمة مثل الإلياذة والاوديسا عند اليونان و المهابهاراتة عند الهنود و الشاهنامة عند الفارسيين وغيرها .....

---

[1] ـ محمد عبد الكريم الوافي: **منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط 3، ليبيا، 2008، ص 28.

6 ـ 2 ـ مرحلة التأمل العقلي : لما شعر الإنسان بالعجز ركن إلى التعقل بدل الخيال ، حيث بدأ يبحث عن جواهر الأشياء بدل الملموس الظاهر ، حيث تزامنت هذه المرحلة مع سيطرة فلسفات الإغريق على الفكر الإنساني ، بما في ذلك من سيطرة للمنطق الأرسطي والفكر العقلاني اليوناني عامة ، فاعتقد الإنسان آنذاك أن الحواس مضللة ومتناقضة ، حيث استمر على الاعتقاد إلى غاية القرون الوسطى أ أي سادت الفلسفات العقلية التي تؤمن إيمانا قاطعا بالمنطق الأرسطي على أنه معيار التفكير الصحيح ، فصار في هذه المرحلة الفلاسفة العقلانيون يعبدون العقل . حيث استمر هذا الأمر على هذا المنوال من التفكير والاعتقاد إلى غاية القرن السابع عشر الميلادي .[2]

6 ـ 3 ـ المرحلة التجريبية العلمية : لقد شهد القرن السابع عشر الميلادي موجة من الرفض للنظريات العقلية من قبل التجريبيين ، حيث تصدى الكثير من الفلاسفة للنظريات العقلية حيث ظهرت أعمال بعض الفلاسفة التجريبيين كرد فعل في وجه طغيان العقل وتجسد ذلك في أعمال :

ـ بيكون في كتاب الأورغانون الجديد

ـ ديكارت في كتاب مقال في الطريقة

ـ جون ستوارت مل في منهج الاستقراء (منهج الحذف)

ـ كلود برنارد في كتاب مدخل إلى الطب التجريبي .[3]

7 ـ تطور المجتمع الإنساني

طرح المجتمع إشكالات متعددة، حول أصوله وأسباب نشأته، وتم التعامل مع هذه الإشكالات على مر التاريخ، بطرق متباينة، من التحليلات الدينية والأسطورية للخلق، التي حاولت إرجاع المجتمع إلى آلهة وآباء مؤسسين وشخصيات خيالية، بعثت المجتمع، وعملت على التحكم فيه، أو تهديمه بصفته عقابا للبشر على سوء أفعالهم. وهو ما نجده في معتقدات الشعوب والفكر التقليدي

---

[2] ـ محمد عبد الكريم الوافي: **منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب** ، مرجع سابق، ص 30.

[3] ـ المرجع نفسه، ص ص 31 ـ 32 .

إلى يومنا هذا، مرورا بالتحليل الفلسفي ذي الطابع التأملي، الذي حاول النظر إلى المجتمع بشكل أكثر واقعية. إلا أن التفكير في المجتمع خلال العصور الحديثة، سيتطور كثيرا مع تطور مناهج المعرفة وتطور الدراسات الإنسانية والاجتماعية، التي ستعيد توجيه السؤال حول المجتمع، مستفيدة من خلفية نظرية ومنهجية، تتجاوز المعطيات التي اعتمدت عليها الرؤى الماضية، محاولة البحث عن الأسس والعوامل التي جعلت الناس على مر التاريخ، يعيشون على شكل جماعات تنتظم، بشكل أو بآخر، داخل عشائر وقبائل ومدن،[4] بعدما كانوا يهيمون في مختلف بقاع الأرض. كما تخبرنا بذلك، علوم الأنثربولوجيا، والأركيولوجيا البشرية، التي عادت إلى البحث في التشكيلات الاجتماعية البدائية القديمة قبل أن تكون هناك دولة، وحيث لم توجد بعد سلطة عامة معينة منفصلة عن المجموعة، أي تتبع المجتمع في جذوره الأولى. حثت الفلسفة اليونانية في أسباب الاجتماع، حيث يمكن أن نتوقف عند المعلم الأول **أرسطو** في «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، الذي قدم تصورا عدّ فيه أن للإنسان دافعا طبيعيا للاجتماع، وأن الناس يميلون طبيعيا إلى العيش داخل مجتمع. وهو ما قد بقي مستمرا بشكل أو بآخر في الفلسفة الإسلامية، وبخاصة مع الفارابي وابن خلدون، حيث لم تخرج هذه التصورات عن فرضية حاجة الإنسان إلى الآخر، من أجل تعويض النقص. إذا تجاوزنا أطروحة الدافع الطبيعي، فإن أقوى محاولة للتفكير في المجتمع هما عبارة عن رؤيتين اثنتين مهمتين، يقدم الأولى الفيلسوف الألماني، والمنظر الاشتراكي **فريديريك إنجلز**، في كتابه «أصل العائلة والملكية والدولة». والرؤية الثانية هي لعالم الاجتماع الفرنسي، **إميل دوركهايم** في حديثه عن أشكال التضامن الاجتماعي في «تقسيم العمل الاجتماعي». وكلتاهما وجهة نظر، وإن كانتا مختلفتين، إلا أنهما تبقيان مهمتين، وقد تتكاملان فتقدمان لنا صورة جيدة حول المجتمع وتاريخه وجذوره، وبناه الداخلية. فالطرح الأول يبحث في السيرورة الإنتاجية والاقتصادية التي دعت الناس تاريخيا إلى الاجتماع. والطرح الآخر ينتقل بنا إلى المجتمع ذاته، ويبحث بطريقة حول الأسباب والسبل التي تجعل الأفراد ينتظمون فيما بينهم، كاشفا عن الرابطة الاجتماعية.مر الإنسان في مسير بحثه عن المجتمع بمراحل متعددة؛ فقد بدأ أولا يعيش في الكهوف من الغابات الاستوائية وغيرها، ويسكن أحيانا الأشجار. هذا النمط القاسي من الحياة سيجعل الحديث عن المجتمع ضربا من المستحيل. لكن الإنسان سيتطور بعد ذلك إلى

[4] - جون ماكوري: **الوجودية** ، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1982، ص ص 243 - 244.

استخدام الأسماك والحيوانات المائية في الطعام، واستخدام النار في طهي الطعام؛ ما سيدفعه إلى تتبع السواحل بحثا عن الأسماك، فمهد له ذلك أن ينتشر في الجزء الأكبر من سطح الأرض، فلما استطاع اختراع القوس والسهم، وأصبحت ثمار الصيد عنصرا أساسيا في الطعام، يضاف إلى ذلك تمكنه من صناعة المعاول الحجرية، والقوارب المحفورة في الخشب، سيصبح مؤهلا أكثر للاستقرار في قرى معينة. يتقاطع مع التطور الذي يقدمه إنجلز على مستوى أنماط الإنتاج، تطور آخر لا يقل أهمية على مستوى العائلة ونظام القرابة. وهو ثاني عامل يفسر إنجلز من خلاله تطور المجتمع.. ستتطور العائلة من المشاعية الجنسية، حيث تكون العلاقات الجنسية مباحة بين الجميع، ما عدا الآباء وأبناءهم، إلى تطور على مستوى المنع، وبخاصة بين الإخوة؛ ما سيساهم في حدوث طفرة اجتماعية جد مهمة، ستساعد في ظهور القبيلة التي ستعطي، بعد ذلك، المدينة، لما سيعمل كل أخ على تأسيس نواة لأسرته الخاصة. ولأنه كان من الصعب على الأسرة الواحدة أن تنشئ قوة، فقد كان الانضمام تحت عشيرة واحدة مهما جدا في هذه المرحلة. بعد ذلك ستتطور الأمور وتزداد مسألة التحريم اتساعا، حتى يصبح من حق كل رجل امرأة واحدة فقط، كما ستتطور العائلة كثيرا مع القدرة على استئناس الحيوانات؛ مما سيؤدي إلى نمو الثروة الحيوانية، وبالتالي سيصبح من الضروري أن تتمدد العائلة، فيكون آنذاك أول انقلاب ذكوري لما سيصبح بإمكان الرجل الزواج من نساء أخريات تقوية للعائلة، ومسايرة لتطور الثروة الحيوانية. هنا ستظهر كذلك الملكية الفردية، وأول تقسيم طبقي في التاريخ بتعبير كارل ماركس، بين الرجل والمرأة. وسيزداد الأمر حدة أكبر مع استعمال الخيول في التنقل والغزو، وسيصبح الصيد الذي كان حرفة بمثابة هواية. هنا سيظهر الزواج الواحد، والعائلة الممتدة ذات القوة الاجتماعية والاقتصادية. لكن وجهة النظر هذه، وإن كانت مهمة جدا، إلا أنها تبقى غير كافية؛ لأن الناس لا توحدهم فقط علاقاتهم الاقتصادية وأنظمة القرابة. الدليل على ذلك هو أن المجتمعات الحديثة، انحلت فيها البنى التقليدية للقرابة، وأصبحت أنظمة الإنتاج غير قادرة على التأثير في أي بناء اجتماعي، حيث أصبحت الفردانية هي الخاصية المميزة لهذه المجتمعات.

هنا من الضروري أن نرفق التصور الذي عايناه لدى إنجلز، مع ما يقدمه **إميل دوركهايم** في «تقسيم العمل الاجتماعي»، لنتعرف على الأسباب التي ستجعل هذا البناء مستمرا، ونتعرف كذلك على الأسس التي ستنظم العلاقات بين أفراده. بالنسبة لعالم الاجتماع الفرنسي إميل

دوركهايم، فإن الناس يتحدون عن طريق الروابط الاجتماعية التي تقوم فيما بينهم، فما إن تتشكل جماعة معينة، إلا وتتكون فيما بين أعضائها لُحمة تتقوى عن طريق القواعد، والمعايير، والأخلاق التي يشكلونها. وتشكلهم من الناحية الواقعية والوجدانية لتسيطر عليهم بصفتها ضميرا جمعيا، الضمير الجمعي هو عبارة «مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة بين الأعضاء العاديين في مجتمع معين، تشكل النسق المحدد لحياتهم». الضمير الجمعي هو كيان حقيقي مستقل، يقوم بإشعاع قهره وتأثيره في عقول الأفراد الخاصة، هو كائن نفسي جديد، متميز عن الشعور الفردي، رغم أنه لا يمكن أن يتشكل إلا عن طريق هذا الشعور، من هنا تنشأ الأخلاق، والقناعات والأديان. فالأخلاق هي قواعد الجماعة، والدين بصفته ممارسة لا يبقى مجرد طقوس خارجية، وإنما هو كذلك أحاسيس داخلية يحملها الإنسان داخله. يترسخ الضمير الجمعي في الوجدان إلى حد نعتقد معه أنه في طبيعتنا، وجزء لا يتجزأ من كينونتنا. وتتطور سيرورة اندماجه عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية، حيث يعمل على تأسيس فكر الجميع، فيصبح الكل واحدا. هنا لا يكون الفرد فردا، بل كائنا منصهرا في الجماعة، على الرغم من أن هذا الكل لا يمثل مجموع الأجزاء، بل شيئا آخر تختلف خواصه عن الخواص التي تحمل أجزاءه الداخلية، وهو ما يشكل الإنسان بخصائصه المادية والروحية والعقلية والاجتماعية.[5]

كما أن الناس في نظر **دوركهايم** يتحدون عن طريق أشكال تقسيم العمل التي تتم فيما بينهم، ففي المجتمعات التقليدية يسود بين أفرادها تضامن آلي يتميز بالبساطة والسذاجة. فالأفراد في المجتمعات التي يسود فيها هذا النوع من التضامن يكونون جد متشابهين؛ لأنهم يشتركون في القيم والمشاعر والمعتقدات نفسها، حيث يتوطد الشعور بالنحن. فهذه المجتمعات لا يمكن أن تتوطد إلا عن طريق التشابهات القائمة بين أفرادها، وكل تباين بينهم إلا ويهدد النظام الاجتماعي بأكمله. ويجب مواجهته بالعقاب والقصاص. هنا يكون الضمير الجمعي مترسخا وقويا جدا. أما التضامن العضوي، فيقوم بالأساس على تقسيم العمل والتخصص المهني الدقيق، الذي يؤدي إلى اختلاف الأفراد، ويؤدي إلى ضعف العلاقات الاجتماعية بينهم، وتنتشر الأنانية والفردية. ولكن رغم اختلافاتهم، يتكون مجتمع هو المجتمع الصناعي الحديث، الذي يعتمد على القانون الذي يعيد

[5] ـ حسن عبد الرازق منصور: **بناء الإنسان**، أمواج للنشر والتوزيع، ط2، عمان، الأردن، 2013، ص ص 187 - 188.

النظام في حالـة الفوضـى، بإعـادة الحـق إلى أصـحابه. وإذا كـان الضـمير الجمعي مهمـا جـدا في التضـامن الأول، فإنه يصبح من دون أي أهمية هنا .

الخلاصـة العامة من هذا الطرح، هي: أن المجتمعات قامت منذ القدم لدواع اقتصـــادية، حيث إن التعاون وتطور أشكال الإنتاج، قـد لعب دورا حاسـما في نشـأة المجتمعـات عـبر التـاريخ، لكن رغم كل شيء، فهذا يبقى عاملا غير كاف، هنا يتدخل القانون، والمعتقدات والقيم التي تجعل لهذا البناء غاية وهدفا ومعنى، هكذا قامت كل المجتمعات عبر التاريخ تسن التشريعات والقواعـد الـتي تنظم العلاقات القائمة فيما بينهم، وتجعلهم قادرين على العيش في أمن وأمان بناءً واحدا متراصـا. فيتشـكل النـاس من حيث حاجيـاتهم اليوميـة والبيولوجيـة، ويتشـكلون كـذلك من خلال حاجيـاتهم النفسية والمعنوية.